

٢- المستقبل وأسرار الوجود

بين السببية والمستقبلية

للأديب عبد الجليل السيد حسن

هر صر لكسكاز السببية :

حينما نأق بقطعة من القطن في النار فلا نشك في احتراقها ،
وحيثما يأكل الجوعان فلا نشك في شبعه ، وحيثما تضرب الطفل
فلا شك أنه سيبكي . وحيثما ترى الغادة الهيفاء والوردة الناضرة
فلا شك في إعجابك بجمالها إذا كنت ممن يقدر الجمال في المرأة
والزهرة

ولتسال معنا الآن : ما الذي أحرق القطن ، واشبع الجائع
وأبكى الطفل ، وأثار فيك مشاعر الجمال ؟ ولا أشك في أنك
ستجيب على الفور : إن السبب في ذلك هو النار والأكل
والضرب والجمال الكامن في المرأة والوردة . ولكن ياساحبي
لا تكن سريع الحكم ، وانظر في الأمر وتدبره ، هل النار

وساقوه إلى السجن

وقد ارتسكب الإنجليز فظاعة وإنما لا يتصوره عقل ، فسلوة
على ما سبق قبضوا على أحد مشايخ القرية ومعه أربعة من الأهالي
ودفنوم حتى أنصاف أجسامهم ، ثم شوهوا وجوههم بوخزات
الحراب ، وبعد ذلك أطلقوا عليهم الرصاص فأراحوم من هذا
المنذاب

أرايت وحشية وفظاعة أكثر من هذا ؟ إن أخط أنواع
البشر لا يمكن أن يصل في وحشيته إلى هذا المرك ، وإن مجازر
الإسماعيلية وبورسميد والسويس لسالة متممة لحوادث المزربية
والبدرشين وزلة الشوبك ، ولكن مهلا وصبرا فإن نهاية هؤلاء
الظفاعة قربية إن شاء الله

أبر الفرح عطيفة

حقيقة هي سبب الاحراق ؟

ما هذا ؟ أتريد أن تمدعني عما أحس وأرى وتقول لي :

إن علة الإحراق شيء غير النار ؟

- لتعلم أنني لست أريد بك خداعا أو تفريرا ، ولكنني أريدك

أن تكون دقيقا أميننا فيما تشاهد وتندرك ، وأن تأخذ الأمور كما

ترد إليك لا تزيد فيها ولا تنقص . فالصلة اللازمة والسبب

القاهر الذي يملك تسند الإحراق إلى النار ؟ أليس هو أنك

شاهدت احتراق قطعة القطن عقب إلقائها في النار ، ولم تر حينك

شيئا أكثر من ذلك ؟ إذن ما الذي دفع بك إلى أن تجزم بأن

النار هي علة الإحراق ؟ لا شيء غير مشاهدة حدوث هذا مع

ذلك أو مقرارنا له . فكأنه ليس هناك شيء يمكن أن يمد سببا

لشيء أو علة له ؛ بل هناك تماقب أو افتران بين الحوادث ، ولا

شيء غير هذا ؛ فقطع الرقبة ليس سببا في القتل ، وكسر الرجل

ليس سببا في الألم ، واتساء الحبيب ليس سببا في النشوة التي

تصاحبه ، وإضاءة الصباح ليست سببا في الضوء الذي يعقبه ،

وإعطاء الرريض دواء ليس هو السبب في شفاؤه .. وغير ذلك من

الأفعال ؛ بل كل ذلك ما هو إلا حوادث تقب حوادث وأشياء

تقترب بأشياء ؛ أما أن تقول إن هذا سبب ذلك ، فهذا مالا

يقره العقل

وهذا هو الوضع الصحيح البسيط لمشكلة السببية بين

الثبتيين الذين يقولون أن لا شيء يحدث بدون سبب ؛ وبين

المنكرين الذين يقولون أن ليس هناك شيء يمكن أن يمد سببا

على سبيل التبيين

ونستطيع أن نخرج من كل ما تقدم بشيء واحد ؛ وهو أن

الذين أنكروا السببية أنكروها لشيء هو وقوفهم عند

ما يشاهدون ويحسون فقط . وأما الذين أثبتوا القول بالسببية

فهو وقوفهم عندما يحسون ويشاهدون أيضا . ولكن الفرق بين

المنكرين والثبتيين : أن المنكرين قالوا « إن المشاهدة تدل

على الحصول منه ، ولا تدل على الحصول به » ، وأما الثبتيون

فقالوا « إن المادة اقتضت أن يتبع هذا ذلك ، فلا بد أن يكون

هذا هو علة ذلك ، وإلا فالناس لحذوث هذا الصائب ؟ » وقد

آمن المثبتون بهذه المادة ، وبنوا حياتهم وقوانينهم عليها ، وقالوا

لا احترقت ، أو لو وضعت يدك في النار لا احترقت ، فأنت لا ترى بنقودك إلى النار ، ولا تضع يدك فيها . وكاننا يشرب الدواء طمعا في الشفاء ، وتجنب اليكروب خوف المرض . والمسلم الطبيعي أو الكيمائي حينما يعيد إجراء تجربة ، فهو متأكد أنه سيحصل على نفس الظواهر التي حدثت في الماضي

فنجن في حياتنا العملية نتفانى عن إنكار السببية ، ونتناسى أن الأمر قد يكون مجرد ارتباط فقط لا عليه فيه . ونحن نعلم تمام العلم أن معرفتنا بالأسباب تجعلنا قادرين على أن نثبأ بما سوف يحدث في المستقبل ، وبمقدار إحاطة علمنا بالأسباب يكون صحة تنبأنا بالمستقبل . ولكن ذلك لا يفرينا بتكوين رأى ومذهب في الحياة على تجاهل أن الأسباب قد تكون مجرد تلازم ومقارنة لا غير ، وما نعد سببا ما هو إلا لحكم المادة والشاهدة فقط ؛ فقد ثبت ثبوتنا قطعيا أن ليس هناك من شيء يمكن أن يعد سببا ، وخصوصا بعد نظرية الكم « الكوانتم » والميكانيكا الموجبة (١)

بيد أن كل ذلك لا يمنعنا من أن ننظر في الأمر نظرة مستقبلية نبني عليها مذهبنا في الحياة ورأينا في الوجود

كما حدث شيء في الوجود ، أو تغير أمر في الظواهر الطبيعية ، فلا بد أن هناك قوة أحدثت هذا التغير ، ونقلت من شيء ما كان موجودا بالقوة إلى الوجود بالفعل ، أو حققت في الواقع شيئا كان يمكن التحقيق ، وليس هناك كائن من كان يستطيع أن ينكر هذه القوة وهذا التغير

ولن نجد اثنين مختلفان في أن حدوث هذا التغير قد حدث بقوة أو بسبب من الأسباب . ولكن ستجد من يختلف في : هل علان الظاهرتان اللتان يتبع بعضها الآخر . . هل الأولى

(١) الكوانتم أي للدار وجمعها كوانتات (مقادير) : هي نظرية قال بها ماكس بلانك الألماني وتتلقي بتفسير الطاقة ، فالطاقة مكونة من كوانتات ، ومن نتائج هذه النظرية أن قفت على الجبرية الكلية ، فالصلة بين الطاقة والإشعاع لا يمكن تعيينها بدقة ، وكان كذلك من نتيجة الميكانيكا الموجبة أن ثبت أن حركات الأجسام لا تعرف بالضبط ، لأنها لا تسير على قوانين ثابتة

إن لكل ظاهرة من الظواهر علاقة أحدثتها ، ثم خصصوا فقالوا : إن هذه الظاهرة « ب » مثلا ، علنها الظاهرة « ا » ودليلهم على ذلك المادة التي أرثهم أن « ا » تنبئها « ب » دائما . وبينما يؤمن المثبتون بهذا ، يقول النكرون : إنه لا علاقة للجزم بأن « ا » لا بد أن يتبئها « ب » بل قد يتبئها « ح » أو « د » من الظواهر ؛ فالعلم سوى قوانين ، وهذه القوانين لم تستخلص إلا نتيجة للتجارب والشواهد التي فرضنا أن لها عللا معينة ؛ وما دام ليس هناك من سند للقول بالعلية والسببية ، فإذن من المحال أن يكون هناك علم ، أو لو أردنا الدقة لقلنا إن صحة علمنا موقوفة على صحة ما نسميه عللا ومعلومات ، وبذلك نتفادى القول باستحالة العلم إلى القول باحتمال صحته ، ولا ضير بعد ذلك ، فالعلم ما هو إلا تسجيل للواقف المشاهد

وانترك الآن عرض السببية عرضا تاريخيا في الشرق عند كل من الفزالي وابن رشد ، وفي الغرب عند كل من « هيوم » وكانت . وانترك أيضا المقارنة بين هؤلاء جميعا إلى فرصة أخرى ونخلص إلى السببية والمستقبل

...

السببية والمذهب المثبلي :

إذا شاهدنا ظاهرتين متلازمتين في الماضي ، مثل الإجران وثناء النار ، أو طلوع الشمس ووجود النور ، فهل يستمر هذا التلازم أيضا في المستقبل أم لا ؟ وإذا كان هذا التلازم والارتباط بين الظواهر ثابتا مستمرا ، فإنه يمكننا بذلك أن تنبأ بالأشياء التي لم تحدث بالفعل ، وسوف تحدث في المستقبل . وحياتك لا شك مبنية على هذا التنبؤ ، فأنت واثق من وجود النور فدا لأنك على يقين من طلوع الشمس فيه حاملة النور إلى الكون . ولكن .. هل خطر بذهنك أن الشمس قد تطلع فدا ولا تغير أو قد لا تطلع البتة ؟ وأنت تنظم حياتك على أن هذه الظواهر المتلازمة في الماضي ، لا بد وأن تستمر في المستقبل ، فأنت على يقين أنك لو أقيمت بهذه النقود الورقية إلى الدار

فصالة ، يبذلها الكائن في استنفاد إمكانيات وجوده وأرجو أن تطيل التأمل ونتم النظر ، وتقف طويلا معي عند أهل الكهف الذين أمضوا في كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسما ، كانت عندهم بمثابة يوم أو بعض يوم ! ولنتعم النظر أيضا وتعل التأمل في هذه الثلاثمائة عام نفحها التي طاشتها الأجيال المتتالية من الأحياء ، ولننظر كيف تغير الوجود ، وتبدلت الأشياء بالنسبة إليها ؟ وكيف عاش هؤلاء الناس واستنفدوا بما أتوا من عمل وبذلوا من قوة إمكانيات وجودهم

فوجودنا لا يتوقف خصبه وغناه على طول مدته ، كما لا يتوقف فقره وإعماله على قصره وسرعته ؛ بل على قدر حفظنا من الانتقال المستقبلي وشعورنا بالوجود

• • •

السببية وغريزة الحياة :

لو فرض أننا عرفنا الأسباب كلها بكل دقة وكل تحديد ، وكنا على دراية تامة بها ، على رغم تشابكها وتمتعها وعظم مقاديرها ، واستعالة عقل واحد أن يحتملها ، تقول لو أننا كنا على علم تام بهذه الأسباب على النحو الذي أسلفنا ، تلك الأسباب التي يحدث نتيجة لها كل ما في هذا الكون . . . فإذا يكون حالنا ؟ وماذا يكون موقفنا من هذا الوجود ؟

زريد أن نرى أولا نتيجة علمنا الكامل الدقيق الثابت بالأسباب ومسبباتها ، وبالقوانين والسفن التي يسير عليها هذا الكون .. حينئذ سنرى المستقبل والحاضر والماضي أمامنا ، ونعلم ما حدث وما يحدث في كل من هذه الأجزاء ، لأن إحاطتنا الكاملة بقوانين الوجود ستريتنا : كيف يسير الوجود فتري كيف سار . وكيف سحر ، وكيف سيسير وستريتنا الوجود واحدا ، فنلم الثيب ونعرف الماضي السحيق ، ويتحقق ما نعلمه « لابلاس » الفلكي الفرنسي المشهور من معرفة قوانين الطبيعة ، حتى يستطيع العقل الإنساني أن يرى الماضي والحاضر والمستقبل . ولنتطبع أن نشبه الأمر بمرآة ، إذا نظر فيها لإنسان رأى ماضى وما هو آت ، أو. نشبه بشرط سبباني بدوره

سبب للثانية ، أم أن الأمر مجرد عادة ومشاهدة ؟ وبعبارة أخرى ستجد من يختلف في أن الاطراد والتلازم والمقارنة في الوقوع ، هو آلة التغير والحدوث

وهذا الاختلاف الذي هو جوهر مشكلة السببية لا يعنيننا أمره كثيرا ، وقد كان يعنيننا أمره لو كنا مهتمين بمعرفة ما يحدث في المستقبل بناء على خبرتنا وتجاربنا في الماضي . ولكن الأمر الذي يهمنا أكثر ، من وجهة النظر المستقبلية ؛ هو إيماننا بالحدوث والتغير ، وشعورنا بوجودنا ؛ بناء على هذا الانتقال المستقبلي ، ونظرتنا إلى الوجود هذه النظرة المستقبلية ؛ لأن كل ما نريد أن نصل إليه هو فهمنا لهذه الحياة كما هي ، وهذا الوجود على حقيقته ، ثم الإفادة من هذا الفهم ، ورسم خطة سير عليها في هذه الحياة

فنحن حين نبنى شعورنا بالوجود على النظرة المستقبلية ، وعلى الانتقال المستقبلي الذي يجعلنا نحس بوجودنا (نذكر مثال الرجل الموجود في الشمس الطالعة والعالم الساكن في المجال السابق) ؛ ونحن نثبت أن وراء الحدوث والتغير قوة سببية حققت الانتقال المستقبلي . أي الانتقال من القوة إلى الفعل ومن الإمكان إلى الواقع ؛ إنما نرم لأنفسنا خطة عملية سليمة ، ونهجا نراه قويا ، ومذهبا مستقبليا في هذه الحياة وهذا الوجود . فنحن نقدس العمل لأنه وسيلتنا في الانتقال المستقبلي ، وندعو إلى القوة لأنها سبيلنا إلى جعل الممكن واقعا ، ونرى أنه بمقدار سرعة انتقالنا للمستقبل يكون حفظنا من الوجود ، وشعورنا به ، وليست العبثة عندنا بطول الوقت الذي يمر به الإنسان ؛ بل بمقدار انتقاله للمستقبل ، وتحقيقه لإمكاناته ، أي بمقدار ما بذل من مجهود ، واستنفد من قوة ، وما استطاع أن يحصل عليه من جراب المستقبل

وإن الشعور بالوجود ، والإحساس بالحياة ، ليتفاوت لدى الإنسان بالنسبة إلى الفعل والعمل الذي يؤديه ، والقوة التي يبذلها ؛ أو يتفاوت بالنسبة إلى ما يناله من الانتقال المستقبلي ، والتغير الذي يصابه ، فألف سنة مثلا قد لا تساوي لحظة أو ساعة ، ألف سنة خاملة ساكنة ميعه نائمة ، لا تساوي ساعة حية نشطة

والتطلع الدائم إلى ما يضمه المستقبل بين جنبيه ، وحالة عدم
السكون الناشئة من الرغبة في تحقيق الفعل ؛ وكل هذه الأمور
تكون ما نسميه « فريزة الحياة » أو الدفعة التي تدفع الناس
إلى الحياة . وأما الأمر الثاني : فهو « الطاقة » التي يعمل بها
الإنسان ليحقق الفعل ؛ ولا يكون ثمة طاقة ، إذا لم يكن هناك
« فريزة الحياة » ، ولكن قد توجد فريزة الحياة دون طاقة ،
ولكنها تكون حياة ساكنة لا تحقق إمكانيات ، حياة عدوها
خير من وجودها . وقد رأينا أن معرفتنا التامة للأسباب
ستفقدنا « فريزة الحياة » الناشئة عن هذا اللامحدد في الانتقال
المستقبلي ، ففناء وجودنا ، وانعدام حياتنا .. سيكون حين يكون
وجودنا مجرد مرآة أو شريط

عبد الجليل البرممن

للكلام بنية

الإنسان فيمر عليه ما نسج من الوجود (الماضي) وما ينسج منه
(الحاضر) وما ينتظر النسيج (المستقبل)

وزيد أن نرى ثانيا : حالنا وموقفنا من هذا الوجود ، بمد
أن يكون الوجود مجرد مرآة أو شريط

سيكون نتيجة ذلك أمرا واحدا ، وهواندمام الحياة والوجود
فإن الإنسان إذا نيقن مما سيحدث ورآه ، أو إذا عرف ما
سينتقل إليه معرفة كالرؤية - مع ملاحظة أن انتقاله للفروض
حينئذ لا يشبه على أي نحو من الأنحاء الانتقال المستقبلي الذي
هو علة الحياة - فلماذا سيعمل إذن ؟ ولماذا يجتهد لتحقيق شيء
قد رآه ؟ إن الوجود سيفقد لذته لديه ، وسيفقد بالتالي ذلك السر
سر الحياة ، وسر الوجود ، وهو الانتقال المستقبلي الذي يشمر
الإنسان بالحياة وبالوجود ، والذي يشمل الأمل والمزاء والرغبة
والرجاء ، والذي يدفعه إلى أن يعمل ليحقق إمكانياته

ولكن .. قد يعمل الإنسان لمجرد لذة تحقيق الفعل .. أفلا
يعمل ذلك الإنسان الذي يرى الوجود كشرائط أو مرآة ، لمجرد
لذة التحقيق ؟

نحب أن نقول إن ذلك الإنسان ان يعمل لمجرد لذة التحقيق ،
كالذي يشاهد من إنسان لا يرى الوجود كشرائط سينتهي أو
مرآة ، حين يعمل عملا وجد فيه لذة ما ، فهو يمود ليحقق نفس
العمل الذي يعرف نتيجته مقدما ، ثم يمرد ليحققه .. ومع
ذلك لا يمله ولا يتركه . ان يكون أمر هذا الإنسان الذي يرى
الوجود ، كما مر ذلك الآخر الذي لم يعرف من
الوجود إلا جزئيه ، لأن ذلك الأخير يتمتع بفريزة
الحياة ؛ أما الأول فبرؤيته الوجود في مرآة
أو شريط ، بناء على معرفته بالأسباب والمهيبات سيفقد
« فريزة الحياة » وإن لم يقدر الطاقة على العمل . فوجودنا يشمل
أمرين : الأول « فريزة الحياة » - وهي هذا الدافع الذي
يدفعنا إلى الحياة الناتج من الانتقال المستقبلي ، لأن الانتقال
المستقبلي يولد في الإنسان أشياء منها التوتر والقلق ، والرغبة
في تحقيق الفعل ، والتموض ، وعدم التيقن الذي يدفع بالإنسان
إلى الانتقال المستقبلي ليرى سره ، والتمزي مما مضى بما هوأت .

يصدر

عدد الرسالة

السنوي الممتاز

□ □
□ □

في يوم ٧ يناير

سنة ١٩٥٢